



الإمام الشهيد؛ قائد كسر حدود الزمن



د. نبيه علي احمد باحث وكاتب من لبنان

الوفاق / في زمن التحولات الكبرى وعصر الصراعات المصرية، تبرز في سماء الأمة شخصيات استثنائية لا يقاس حضورها بالسنوات، بل بحجم الأثر والتغيير الفكري والسياسي الذي تحمله. ومن بين هذه القامات الشامخة، يتجلى اسم سماحة آية الله العظمى الإمام الشهيد السيد علي الحسيني الخامني (رحمه الله)، كقائد ملهم وعالم رباني مجاهد، صاغ بمواقفه وثقافته معالم مرحلة تاريخية كاملة، وختم حياته الحافلة بأسمى آيات الفداء، تاركاً إرثاً حياً يواصل هداية الشعوب المستضعفة.

الإمام الشهيد ومكانته العلمية.. عمق الفقه والاجتهاد
لم يكن الإمام الشهيد مجرد قائد سياسي يدير دفة الحكم، بل كان في المقام الأول فقيهاً مجتهداً ومفكراً إسلامياً بارزاً. امتازت مكانته العلمية بعمق التأسيس الفقهي والأصولي، حيث تخرج من أهم الحوزات العلمية وتلقّد على يد كبار مراجع الأمة. تميز فقهه بالمعاصرة بالقدر على استنباط الأحكام التي تلائم قضايا العصر ومستجداته، فلم يكتفِ بالجانب النظري، بل أسس لرؤية فقهية حركية قادرة على بناء الدولة وإدارة المجتمع وتوجيه الأمة في

أحلك الظروف. كانت بحوثه الفقهية وخطبه التوجيهية منارة لطلاب العلم والباحثين، تعكس دقة الفهم والنظرة الشمولية للدين الإسلامي كمهنة حياة متكاملة.

المكانة الثقافية.. وعي كوني وأصالة فكرية
شكلت الثقافة عند الإمام الشهيد بُعداً بنيوياً في شخصيته. فقد كان موسوعي المعرفة، يمتلك اطلاعاً واسعاً على الفلسفات الشرقية والغربية، وقراءات عميقة في التاريخ البشري والسياسي. هذا الوعي الكوني لم ينسلك يوماً عن أصالته الإسلامية، بل استخدمه لتقديم قراءة نقدية دقيقة للثقافة الغربية، وتبيان نقاط ضعفها وتناقضاتها. لقد آمن الإمام الشهيد بأن المعركة الحقيقية هي معركة وعي وثقافة، ولذلك ركّز طوال حياته على تعزيز الهوية الثقافية المستقلة للأمة، ومواجهة محاولات التغريب والسخف الثقافي، داعياً الشباب دائماً إلى التسليح بالوعي والبصيرة ليكونوا قادة المستقبل. إن عظمة شخصيته الثقافية تكمن في ذلك المزيج المدهش بين «أصالة الفقيه الحوزوي» و«حداثة المثقف الكوني»، وهو ما جعل فكره أشبه بقلعة حصينة تتنفس هواء العصر دون أن تفقد هويتها الجذورية.

الانفتاح على الفكر العالمي
من الملامح الأكثر جاذبية في شخصية الإمام الشهيد هي تهمه المعرفي العابر للثقافات. لم

يسجن نفسه داخل جدران النص التراثي؛ بل كان قارئاً فذاً للروايات الأدبية العالمية، ومتابعاً دقيقاً لحركات الحدائث الفكرية. لقد قرأ روائع الأدب الروسي (مثل ديروز وتولستوي وشولوخوف)، والأدب الفرنسي (مثل فيكتور هوغو وجان بول سارتر)، والأدب اللاتيني. ولم تكن قراءته للمتعة، بل كان يمتلك قدرة تفكيكية عجيبة على قراءة «الروح النفسية والسياسية» للشعوب من خلال أدبها. هذا الانفتاح جعله قادراً على تفكيك خطاب «الحدائث الغربية» من الداخل، ومحاكاة الغرب بأدواته الفلسفية والأدبية نفسها، وهو جانب يثير الدهشة والاحترام لدى سائر النخب الفكرية عالمياً.

٢- الناقد والمؤرخ الفكري: صائد التفاصيل
لم يكن الإمام الشهيد مستهلكاً للثقافة، بل كان منتقياً وناقداً لها. يظهر ذلك جلياً في قراءته للتاريخ؛ حيث كان يمتلك ذاكرة تاريخية حديدية وقدره على ربط الأحداث السياسية بجذورها الثقافية والاجتماعية عبر مئات السنين. في جلساته الفكرية، كان يحلل التيارات الأدبية والفلسفية بدقة بروفيسور أكاديمي متمرس، فيشخص بدقة متناهية أين تعثرت الفلسفة المادية، وأين أصاب الفكر الإنساني الغربي، وكيف يمكن للمنهج الإسلامي أن يملأ الفراغ الروحي والمعرفي الذي يعاني منه إنسان العصر الحديث. هذا العمق النقدي حوّل خطاباته من مجرد توجيهات سياسية إلى «وثائق فكرية استراتيجية» تُدرس.

٣- «رادار» الاستشراف المعرفي والوعي بالوقت
من الجوانب الجاذبة جداً في عبقرية الثقافة هي المعاصرة الفائقة والسبق المعرفي. كان يمتلك حساً استشرافياً نادراً؛ فقبل أن يتحدث العالم عن «الغزو الثقافي» أو «الحرب الناعمة» بمصطلحاتها الحديثة، كان سماحته أول من صاغ هذه المفاهيم، وحذر من «الهجوم الثقافي غير المرئي» للاستكبار، واصفاً إياه بـ «الناو الثقافي». هذا الوعي جعله يركز بشكل دائم على ضرورة إنتاج محتوى ثقافي أصيل (من كتب، وسينما وفنون) يمتلك القدرة على المناقشة العالمية، معتبراً أن الجبهة الثقافية هي خط الدفاع الأول والأخير عن سيادة الشعوب وحريتها.

٤- كيمياء العلاقة مع المبدعين.. تواضع العلماء وجاذبية القيادة
تتجلى عظمة شخصية الثقافة للإمام الشهيد في «أنسنة الثقافة». في لقاءاته الشهيرة مع الشعراء والأدباء والفنانين والمخرجين، كان يخلع عباءة القائد السياسي الصارم ليرتدي عباءة الوالد الموجه والمشارك. كان يستمع للقصيدة وينتبه لـ «الكسر العروضي» الخفي، ويناقش المخرج السينمائي في زوايا الإضاءة وعمق الكادر وحبكة السيناريو، ويتبادل الآراء مع الروائيين حول رسم الشخصيات. هذه الإحاطة التفصيلية بالفنون والآداب أوجدت رابطاً روحياً وثقافياً فريداً بينه وبينها.

كما يتعامل العارف مع رفيق طويل الصحبة، ومع الشعر كما يتعامل المؤمن مع نفس عميق يعثر عمقاً تعجز عنه السياسة أحياناً. وهنا يكمن أثره الثقافي الأبرز: أنه أعاد للثقافة معناها الجاد. الثقافة ليست ترفاً، وليست كلاماً جميلاً يُقال في المناسبات. الثقافة عنده بناء للإنسان، وحراسة للهويّة، وتربية للبصيرة. كان يدرك أن الهزيمة قديماً من فكرة مشوّهة، من ذائقة مكسورة، من جيل لا يعرف ماذا يقرأ، ولا كيف يميّز بين الصوت الحقيقي والضجيج. من هنا أفهم اهتمامه بالأدب والكتب والفن والشعر. لم يكن ذلك اهتماماً عابراً، بل كان إيماناً بأن الكلمة قادرة على أن تتف في الخندق نفسه الذي تتف فيه البندقية؛ لكن على طريقتها: بهدوء، بتركم، وبأثر لا يُرى سريعاً؛ لكنه يبقى طويلاً.

بين الحزم والرحمة
من السهل أن ترى في قائد الأمة الشهيد وجه الحزم، لأن الحزم يترك صورته واضحة في المواقف الكبرى؛ لكن الأضعف والأجمل، أن تلمح الرحمة خلف ذلك الحزم. في سيرة السيد

وبين جيل المبدعين؛ فلم يروه مجرد مرجع ديني، بل وجدوا فيه «المثقف الأول» الذي يفهم لغتهم الرمزية، ويقدر قيمة «الجمال» كرسالة إلهية لإصلاح البشرية. كانت لقاءاته السنوية الدورية مع الشعراء والأدباء محطة بارزة ينتظرها أهل الفكر، حيث كان يناقش القوافي والبحور، ويوجه بوصلة الأدب ليكون أدباً رسالياً ملتزماً بقضايا الإنسان والحزبية. آمن سماحته بأن الفن، بمختلف أشكاله من سينما ورسم ومسرح، هو أرقى وأقوى أداة لتخليد القيم الإنسانية والثورية، وتوثيق ملاحم الصمود والتضحية. إن هذه الملامح الثقافية الفريدة تكشف أن سماحته لم يكن يقود أمة بحذو سيف أو بقوة السياسة وحسب، بل كان يقودها بسطان الوعي، وجاذبية الفكر، وسحر البيان. لقد قدّم للعالم نموذجاً حياً للقائد الإسلامي الذي يستوعب علوم الماضي، ويفكك شيفرات الحاضر، ويبني جسوراً متينة نحو المستقبل.

مكانته العالمية في حماية الشعوب المستضعفة.. بوضلة الحق
تجاوزت عباءة الإمام الشهيد الحدود الجغرافية والقومية، لتصبح مظلة أمان لكل المستضعفين في الأرض. انطلق في رؤيته السياسية والعالمية من المبدأ القرآني الداعي لنصرة المظلوم ومواجهة المستكبر. من فلسطين إلى لبنان، ومن اليمن إلى شتى بقاع الأرض التي عانت من الظلم والظلمة الدولية، كان الإمام الشهيد السند الأقوى والداعم الأكبر لحركات المقاومة والشعوب الساعية للحرية والاستقلال. لم تكن مواقفه مجرد تصريحات دبلوماسية، بل ترجمت إلى دعم استراتيجي، سياسي، وميداني، جعل من محور المقاومة قوة إقليمية وعالمية لا يمكن تجاوزها، وأعاد للأمم المستضعفة ثقافتها بقدرتها على انتزاع حقوقها بفضل الصمود والاعتماد على الذات.

شهادته؛ وأثرها في هزيمة محور الشر العالمي
إن الختام المسك لحياة هذا العالم القائد لم يكن إلا نبيل وسام الشهادة الرفيع، وهو المقام الذي طالما تطلع إليه وجاهد من أجله. إن شهادة آية الله العظمى الإمام السيد علي الحسيني الخامني (رحمه الله) لم تكن نهاية للمسيرة، بل كانت بعثاً جديداً وضحاً لدماء حارة في عروق الأمة. لقد توهم «محور الشر العالمي» بقواه الاستكبارية والصهيونية أن غياب الجسد سيؤدي إلى تفكيك المشروع وانكسار الإرادة؛ لكن النتيجة جاءت عكسية تماماً. أحدثت الشهادة زلزالاً فكرياً وعاطفياً وحّد الساحات وجمع القلوب على خيار المواجهة الحتمية. تحولت دماؤه الزكية إلى وقود لوعي جمعي عابر للثقافات، وأعطت دفعةً معنوية هائلة للمجاهدين في الميدان، مؤكدة أن القادة في هذا المحور يتقدمون نحو الشهادة كما يتقدمون نحو النصر. هذه التضحية الكبرى عمقت من مآزق الاستكبار العالمي، وكشفت عن زيف قوته الردعية، لتسجل الشهادة بداية مرحلة السقوط الفعلي والتاريخي لمحور الشر، وصعود فجر جديد تمتلك فيه الشعوب المستضعفة قرارها وحرّيتها.

في جلساته الفكرية. كان يحلل التيارات الأدبية والفلسفية بدقة بروفيسور أكاديمي متمرس، فيشخص بدقة متناهية أين تعثرت الفلسفة المادية، وأين أصاب الفكر الإنساني الغربي

شكلت الثقافة عند الإمام الشهيد يُعداً بنيوياً في شخصيته. فقد كان موسوعي المعرفة يمتلك اصلاً واسعاً على الفلسفات الشرقية والغربية

قبل أن يتحدث العالم عن «الغزو الثقافي» أو «الحرب الناعمة» بمصطلحاتها الحديثة. كان سماحته أول من صاغ هذه المفاهيم. وحذّر من الهجوم الثقافي غير المرئي، للاستكبار

في جلساته الفكرية. كان يحلل التيارات الأدبية والفلسفية بدقة بروفيسور أكاديمي متمرس، فيشخص بدقة متناهية أين تعثرت الفلسفة المادية، وأين أصاب الفكر الإنساني الغربي

في رثاء القائد الشهيد

ختام النبيين.. النبي المقاتل



تصميم البرغوثي شعار مسطر

تذكر إذا ما قيل حق وباطلٌ
ختام النبيين النبي المقاتلُ
رسالته يُملئ بحرين منتهى
فأسود مطبوع وأحمر سائلُ
وأياتها أبناؤنا وبناتنا
ومصحفها أحيائنا والمنازلُ
وقد صدق القول، الرسولُ بنفسه
فأبناؤه أيّ الكتاب الأوائلُ
لأتمته أهدى بنيه فدي، فهم
على صدقه فيما يقول دلائلُ
وأغلى من ابن المرء أبناء بنته
وها هو أهداهم فقيم تجادلُ
رجال بالاستشهاد صاروا أئمة
مناصبهم يوم القتال المناصلُ
ومن موته أسمى بداية ملكه
فذلك ملك عهده متناولُ
وكم آية لله ما بين خلقه
تحاول من هدي الوري ما تحاولُ
ولله آيات فدائية على
سجية عيسى وادعون بواسلُ
ولله آيات سباع متى تسر
على الأرض تهذب من خطاها للزلازلُ
ولله آيات شيوخ إذا سروا
أضاعت لهم من نفسهن المشاعر
إذا أسندوا في منبر بندقية
فذلك شغل للمنية مشاغلُ
وكم آية لله تحت عمامة
يرد التحايا في الأسي ويجاملُ
ولو حملوا حزن الحسين وجنتهم
بحزرك قالوا، هل لحزنك حاملُ
وكم من شهيد، من شهيد تواتروا
لألى نور عقدها متواصلُ
وكم من علي، من علي أصوله
ويوم التنادي قدرهم متعادلُ
فإن الذي ما حاد والنبل وابلُ
شبيه الذي ما حاد والقصف وابلُ
وإن علياً أمّ قاتله وقد
درى أنه يغتاله ويُخاتلُ
شبيه عليّ ظلّ في صحن داره
وما زحزحته خطوطين القنابلُ
ولحيتته البيضاء لحية جدّه
يمد بأيديهم إليها الأراذلُ
ويغتاله من وشم لفظه كافر
على زنده، يزهو بها ويخايلُ
أتعرف من هذا، لحبت، لا أنعم
فلا هو مجهول ولا أنت جاهلُ
أنتسبون من أنتم وتتسون أصلكم
أنتسى فريش شيخها والقنابلُ
أيا أيها الناس بن بنت نبيكم
لعلمي وهذا المشهد المرّ كاملُ
هنا الجسم يبقي حيث أحرز مجده
وتحدو بعار الساكتين القوافلُ
فأكرم بها من لحية وعمامة
لها ألف عام عن حماكم تناضلُ

التراب، وهذا حق الحياة على أبنائها؛ لكن الأثر لا يعرف الطريق نفسه. الأثر يبقى في قارئ فتح كتاباً لأنه آمن أن القراءة جزء من الجهاد الثقافي. يبقى في شاعر شعر أن للكلمة وظيفة أعلى من التزيين. يبقى في أم ربت أبناءها على الثبات. يبقى في يتيم تذكر يداً حانية. ويبقى في قلوب كثيرة وجدت في حضوره معنى الأبوة والولاية والبصيرة. في أجواء ذهنه، لا أكتب رثاءً تقليدياً. أشعر أن الرثاء وحده لا يكفي لرجل ترك هذا القدر من المعنى. أكتب محاولة صغيرة لفهم الحزن حين يتحول إلى وفاة، والغياب حين يصير مسؤولية. فما نفع النبء إن لم يفتح فينا باباً للوعي؟ وما معنى الوداع إن لم يجعلنا أكثر انتباهاً لما بقى؟

رحل الإمام الشهيد السيد علي الخامني (رحمه الله) لكن صورته لا تتف عند حدود الغياب. ستبقى في الذاكرة هيئة رجل جمع بين القرآن والكتاب، بين الحزم والرحمة، بين الموقف والبصيرة. وسبقني أثره بقول لنا إن الثقافة ليست بعيدة عن الإيمان، وإن الكلمة ليست بعيدة عن الموقف، وإن القائد إذا صار معنى في قلوب الناس، فإن التراب لا يأخذ منه إلا الجسد.

القائد، كان حضور الأيتام والأطفال والفقراء يفتح باباً آخر لفهم شخصيته. هناك، بعيداً عن المنابر والخرائط والتحديثات، تظهر الروح على حقيقتها. كنتُ كما رأيتُ صورة له مع طفل أو يتيم، شعرت أن القائد الذي يحمل همّ الأمة لا يجوز أن يفقد القدرة على الانحناء نحو دمعة صغيرة. تلك ليست لقطة عاطفية عابرة. إنها تكشف عن أصل في الشخصية: أن القوة إذا انفصلت عن الرحمة صارت قسوة، وأن القيادة إذا تبعدت عن الإنسان فقدت معناها. لهذا بقي في صورته شيء أبويّ عميق. ليس الأب الذي يكثر الكلام، بل الأب الذي يضع يده على الكتف في لحظة خوف، فيمنحك شعوراً بأنك لست وحدك. وربما لهذا كان صوته، في كثير من اللحظات، يخرج هادئاً لا مرتفعاً، ومع ذلك يترك في النفس أثراً أعظم من الصراخ.

ماتركه في داخلي
على المستوى الشخصي، لا أستطيع أن أقصّل أثره عن معنى الثبات. كنتُ أتابع كلماته فأشعر أن الطمأنينة ليست غياب الخطر، بل معرفة الطريق وسط الخطر. كان يعلمنا، من غير

ما لا يذفن
حين يُدفن الإمام الشهيد، لا تُدفن معه الكتب التي أحبها، ولا الكلمات التي أطلقتها، ولا الوعي الذي أسهم في تشكيله. يذهب الجسد إلى